﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذمُّ كفران النِّعمة يستوجب التَّنبيه على وجوب شكرها

لمّا ذكر النَّظم الجليل أنَّ الكافرين بدَّلوا نعمة الله كفرًا؛ أتبع ذلك في هذه الآية بذكر إنعامه على الوجود كلِّه، فلمّا "ذكر أحوالَ الكافرين لنعم الله تعالى، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعةِ شكرًا لنِعَمه؛ شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافَّة الأنام المثابرة على الشُّكر والطّاعة من النّعم العِظام والمنن الجِسام حثًّا للمؤمنين عليها وتقريعًا للكفرة المُخلِّين بها الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصيَ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِزْقًا﴾: أصلُ (رزق): أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ الله جَلَّ ثَناؤُهُ[2]، وهو كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أرْزاقٌ[3]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[4]. والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أيْ: أعْطَى، وَوَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي، وَهوَ اللهُ[5]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلَى الجَوْفِ، وَيُتَغَذَّى بِهِ؛ فَهوَ رِزْقٌ، وَمِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ[6]، والمقصود بالرِّزق في الآية: القوتُ، ويُطْلَقُ على الطَّعامِ والثِّمارِ[7].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(3) بن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (رزق).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/235.

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: أصلُ (سخر): أصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ، مِنْ ذلكَ قَولُنا: سَخَّرَ اللّه ﷻ الشَّيْءَ[1]. فالتَّسخيرُ: التَّذليلُ، وسفُنٌ سواخِرُ؛ إذا أطاعت، وَطابَ لَها الرّيحُ، وَكُلُّ ما ذَلَّ، وانْقادَ، أو تهيَّأ لكَ على ما تُريدُ، فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ[2]. والسُّخْرَةُ: الرَّجُلُ أو الدّابَّةُ يُسْتَعْمَلُ بِلا مُقابِلٍ، يُقال: سَخَّرَهُ، سُخْرًا، وسُخْريًّا، أيْ: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ[3]. والمُسَخَّرُ هو المقيَّض للفعل، والسُّخْريُّ: هو الذي يقهر، فَيَتَسَخَّرُ بإرادته[4]. وقيلَ: السُّخريُّ، بِالضَّمِّ، مِنَ التَّسْخير، والسِّخريُّ بِالكَسْرِ، مِنَ الهُزْءِ[5]. وَحَقيقةُ التَّسْخيرِ في الآية: التَّذليلُ والتَّطويعُ، والمُرادُ بتَسْخيرِ الفُلْكِ: تَسْخيرُ ذاتِها بإلهام البَشَرِ لِصُنْعِها وشَكْلِها بِكَيْفيَّةٍ تَجْري في البَحْرِ بدونِ مانِعٍ، وَتَسْخيرُ الأنْهارِ: خَلْقُها على كَيْفيَّةٍ تَقْتَضي انْتِقالَ الماءِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ وقَرارَهُ في بَعْضِ المُنْخَفَضاتِ[6].

3) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: أصلُ (فلك): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذلكَ فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفَتْحِ الفاءِ، سُمِّيَتْ لِاسْتِدارَتِها[7]. والفُلْكُ: جَمْعٌ لَفْظُهُ كَلَفْظِ مُفْرَدِه: السَّفينَة، يُذكَّر، ويؤنَّث[8]، ومِنْ هذا القياسِ فَلَكُ السَّماءِ: مَجرى الكواكب[9]. والمرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمُ لِمَرْكَبِ البَحْرِ، واسمُ جَمْعٍ لهُ بِصيغَةٍ واحِدَةٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يذكر الحقُّ سبحانه بعض نِعمه على الوجود كلِّه،

نِعَمُ الله تعالى على البشَر لا تُعدُّ، ولا تُحصى لكثرتها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(3) ابن سيده، المحكم: (سحر).
(4) الراغب، المفردات: (سحر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (فلك).
(9) الراغب، المفردات: (فلك).

فقال تعالت كلماته: هو الَّذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَمِ، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وأنزَل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتَنوِّعةِ رِزقًا لكم تعيشونَ به، وذلَّلَ لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الَّذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كَفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبوها لتنتَقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعتَكم مِن بلدٍ إلى بلدٍ، وذلَّلَ لكم الأنهارَ لتشربوا مِن مياهِها، وتَسقوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدونَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في الآية:

إقامة الحُجَّة على العباد بسرد آلائه وجميل نعمائه

الجملة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مستأنفة للتَّذكير بآلاء الله تعالى على خلقه، وللتَّنبيه على عظيم قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحُجَّة عليهم[1]، وهذا الاستئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمَّنته الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[2]، ففيه دلالةٌ على بطلان أولئك الأنداد، وتفسير لكون مصير المشركين النّار؛ إذ إنَّ خالق السَّموات والأرض وما فيهما هو الله تعالى، فأنّى يتَّخذون من دونه آلهة يجعلونها له نِدًّا؟! تعالى الله عمّا يصفون.

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسمية:

تأكيد الإنعام وتربية للمهابة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، وللدَّلالة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.

على ثبوت ذلك المعنى وكونه حقيقة راسخة لا تتغيَّر بمرِّ الزَّمان، كما أنَّ في جعلها اسميَّة متضمِّنةً تلك الأفاعيلَ العظيمة، وما تبعها من المذكورات لاحقًا؛ أدلُّ على تربية المهابةِ، فهي تذكير مؤيَّد بالبراهين على عظيم آلاء الله؛ للتَّنبيه على قدرته مع إحسانه إلى البشر لتقوم الحجَّة عليهم[1].

سرُّ التَّعبير بالمسند إليه باللفظ الجليل ﴿ٱللَّـهُ﴾:

التَّعبير بالاسم العظيم أبلغ في سياق التَّذكير بعظم المخلوق

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ تعظيمًا لمضمون الآية، فخلْقُ السَّموات والأرض عظيم الشَّأن حريٌّ بأن يسند إلى لفظ الجلالة الدّالِّ على التَّعظيم والجلال، كما أنَّ تصدير الآية باللَّفظ الجليل مفيض النِّعم، فيه تربية للمهابة، ولتعيين الموجِد الذي هو الغرض الأهمُّ في الآية[2].

مجيء المسند اسمًا موصولًا:

تعريف المذكور بأفعاله المعهودة أوقع في الاحتجاج

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول مسندًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للتَّعريف بالله تعالى؛ لما في الموصول من صلة تتيح أن يُعطف عليها الأفعالُ المراد وصف الله تعالى بها، "فهو تعريف لله تعالى بأنَّه الّذي خلق السّموات والأرض، خلق ﷻ السّماء ببروجها ونجومها وكواكبها، والأرض بطبقاتها وجبالها، وما أودع ببطنها من أحجار وفلزات ومعادن جامدة وسائلة"[3]. فالتَّعبير بالاسم الموصول للدَّلالة على أنَّ هذه الصِّفات لا يجادل فيها أحد بأنَّها من فعل الله تعالى، فخلق السَّموات والأرض وما عطف عليهما ليس في محلّ خلاف بين الخلق بأنَّ الله هو موجدُها،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4031، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4031.

فجيء بالموصول إشارة إلى أنَّ الله تعالى مشهور ومعهود أنَّه هو خالق السَّموات وما تبعها، "فجيء في هذه الآية بنِعَم عامَّة مشهودة محسوسة لا يُستطاع إنكارُها، إلّا أنَّها محتاجة للتَّذكير بأنَّ المنعم بها وموجدها هو الله تعالى"[1].

سرُّ التَّعبير بجملة الصِّلة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

سوقُ الأدلَّة التي لا تنقض تأكيدٌ لاستحقاق الإلهيَّة على وجه الوحدة

عبَّر النَّظم الجليل بالجملة الفعليّة في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ صلة للموصول؛ لأنَّ الخبر المضمَّن في هذه الصِّلة ممّا هو معلوم بالضَّرورة لكلِّ النّاس؛ "إذ لا ينازع المشركون في أنَّ الله هو صاحب الخلق، ولا يدَّعون أنَّ الأصنام تخلق شيئًا، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، فخلْقُ السموات والأرض دليل على إلهيَّة خالقهما، وتمهيدٌ للنِّعم المودعة فيهما، فإنزالُ الماء من السَّماء إلى الأرض، وإخراجُ الثَّمرات من الأرض، والبحارُ والأنهارُ من الأرض، والشَّمسُ والقمرُ من السَّماء، واللَّيلُ والنَّهارُ من السَّماء ومن الأرض"[2].

دلالة العطف في ﴿وَأَنزَلَ﴾:

حشد النِّعَم العظيمة أوقع في قوّة الاحتجاج

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة صلة للموصول، فأعقب ذكر خلق السَّموات بذكر النِّعمة التي بها تكون الحياة، وهي نعمة الماء، وهي كائنةٌ من الأرض ومن السَّماء معًا[3]، وفي ذلك تأكيدٌ للاحتجاج عليهم بسرد عظيم النِّعم.

سرُّ تقييد إنزال الماء ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

المنَّة بنزول الماء من السَّماء أبلغ لما فيه من محض الإنعام

قيَّد النَّظم الجليل إنزال الماء بكونه كائنًا من السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لبيان محض الامتنان به عليهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

فمن المعلوم أنَّ المطر نازل من السَّماء، فإنَّما جيء به لإظهار الامتنان عليهم به، فماء المطر منه مشربهم، ومنبت الكلأ في بواديهم، وبيان كونه من السَّماء فيه تنبيهٌ على محض الإنعام.

غرض تقديم ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءً﴾:

تعظيم المُنزَّل قبل ذِكْره ببيان جهة نزوله

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فلم يأتِ به على أصل التَّركيب: (وأنزل ماء من السَّماء)؛ تعجيلًا بما يشرِّف هذا الماء، ويبين وجه الامتنان به، وذلك ببيان جهة النُّزول قبل المنزَّل، كما أنَّ في تأخير المفعول به تشويقًا له[1]، فيحصل الامتنان بكونه نازلًا من السَّماء لمحض الإنعام قبل بيان ماذا أنزِل، كما أنَّ السّامع يتطلَّع لمعرفة هذا المنزَّل فيؤخِّر ذكره إلى آخر العبارة تفخيمًا لشأنه وتشويقًا له، فيقع في الأُذن عند ذِكْره موقعًا حسنًا بليغًا.

غرض تنكير المفعول به ﴿مَآءً﴾:

كثرة النِّعمة دليل كرم المنعم، دالَّة على وجوب طاعته وعبادته

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الماء بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير، والتَّعظيم، فتكثير الماء النّازل من السَّماء في سياق بيان النِّعم أنسب وأبلغ في سياق الامتنان بالإنعام.

دلالة الفاء في ﴿فَأَخْرَجَ﴾:

خروج الثِّمار كائنٌ بسبب تراكم النِّعم من خلق الأرض وإنزال الماء من السَّماء

أدخل النَّظم البليغ الفاء الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لأنَّ نزول الماء هو السَّبب في النُّمو، فخروج الثَّمار كائن بسبب الماء الّذي جعل منه كلَّ شيءٍ حيٍّ[2]، فذكر أوَّلًا الإنعام عليهم بنزول الماء من السَّماء بمحض فضله، وأتبعه بكون ذلك الإنعام بالماء هو المسبِّب

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

لخروج الثِّمار، فهو تأكيد للإنعام عليهم ببيان فائدة الماء وأثره في حياتهم.

سرُّ التَّعبير بشبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

إحالة نعمة الثِّمار على نعمة الماء يفصح عن لطف مقاديره بعباده

علَّق النَّظم الجليل فعل إخراج الثَّمرات بشبه الجملة من الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للنَّصِّ على أنَّ تلك الثَّمرات إنَّما خرجت بسبب الإنعام بالماء[1]، وفي ذلك مزيد من تفخيم شأن النِّعمة.

دلالة من ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

جنس الرِّزق الخارج بالماء ثمار متنوّعة

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لبيان الخارج من الأرض بأنَّه من جنس الثَّمرات، فـ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّة، جيء بها تبيينًا للرِّزق، أي: أخرج به رزقًا هو ثمرات[2]، فجيء بـ ﴿مِنَ﴾ البيانيَّة لتنوُّع الثَّمرات، والمعنى: فأخرج بالماء الثَّمرات المتنوِّعة المختلفة الفوائد[3].

دلالة الجمع والتَّعريف ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

كثرة النِّعمة ألزم في سياق الامتنان

آثر النَّظم الكريم المجيء بلفظ الثَّمرات معرَّفًا مجموعًا في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ للدَّلالة على كثرة تلك الثِّمار، فهي ثمار لا تنحصر[4]، والتَّكثير المدلول عليه بصيغة الجمع ألزم وأبلغ في سياق الامتنان بعظيم الإنعام.

نكتة تقديم أشباه الجُمل على المفعول: ﴿رِزۡقٗا﴾:

تشريف المقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر

قدَّم النَّظم الجليل المجرورات على المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا﴾، ولم يقل: (فأخرج رزقًا من الثَّمرات به)؛ لأنّ تقديم المجرور على المنصوب باعتبار كونِ الثَّمرات هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/557.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4032.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.

مادَّة الرِّزق، أو تشريفًا لها، وتفخيمًا لشأن المؤخَّر، فيبقى السّامع متطلِّعًا لمعرفة المراد من إخراج الثِّمار بالماء، فبعد الامتنان بإنزال الماء معلوم أنَّ السّياق في بيان هذه النِّعم والامتنان بها، فأُخِّر الغرضُ من تلك النِّعَم تفخيمًا له ليقع في السَّمع أبلغ موقع.

سِرُّ تنكير المفعول به ﴿رِزْقًا﴾:

سعة الرِّزق وشموله الأنواع الكثيرة أوسع من تعيينها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الرِّزق بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ للدَّلالة على العموم، فيشمل كلَّ المطعوم والملبوس وغيره ممّا هو رزق[1]، وهذا يجري على سياق الآية من إيراد الألفاظ بما يدلُّ على الكثرة والتَّعميم؛ وذلك لمناسبته الاستدلال بعظيم النِّعَم على استحقاق التَّوحيد والعبوديَّة لموجدها.

دلالة وصف ﴿رِزْقًا﴾ بـ ﴿لَّكُمْ﴾:

إيجاد الرِّزق مقصودًا به الإنسان دليل على عظيم الامتنان

قيَّد النَّظم الجليل الرِّزقَ بشبه الجملة ﴿لَّكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ لما في هذا القيد من بيان كون المقصود بذلك الرِّزق الإنسان، وخاصة المخاطَبين، وفي ذلك تأكيد على عظيم الامتنان؛ إذ لم يكن إنزال المطر وإخراج الأرزاق خبطَ عشواء؛ بل كان المقصود منه أن يكون ذلك رزقًا للنّاس، وهذا يدلُّ على عظيم الامتنان.

دلالة العطف في ﴿وَسَخَّرَ﴾:

نعمة الإبحار من نِعَم الخالق العظيم

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة صلة للموصول[2]، وما تبعها في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛ إذ بعد تلك النِّعَم أتبعها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.

بالنِّعم الكائنة في مياه البحار[1]، فهي وَسَطٌ ناقل لتجارتهم وسفرهم بالفُلك.

بلاغة المجاز في التَّسخير:

تخويل العباد بالتَّصرُّف بالموجودات من تمام الإنعام

عبّر النَّظم الكريم بالتَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ عن القدرة في التَّصرُّف به؛ إذ إنَّ "التسخير حقيقته: التَّذليل والتَّطويع، وهو مجازٌ في جعل الشَّيء قابلًا لتصرُّف غيرِه فيه"[2]، فالله تعالى جعل تلك الموجودات بحيث يمكن للإنسان أن يستفيد منها ويطوِّعها له ولمآربه، وفائدة "التَّعبير عن التَّصريف المتعلِّق بما ذُكر من الفُلك والأنهارِ والشَّمسِ والقمر واللَّيل والنَّهار بالتَّسخير من الإشعار، بما فيها من صعوبة المأخذ وعزَّة المنال والدَّلالة على عِظَم السُّلطان وشدَّة المحال ما لا يخفى"[3].

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾:

مقصود تلك النِّعمة الإنسان

قدَّم النَّظم الكريم شبه الجملة من الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، ولم يقل: وسخَّر الفُلكَ لكم؛ اهتمامًا بأنَّ المقصود من تلك النِّعمة المخاطَبون، وأنَّهم مخصوصون بها، كما أنَّ في تأخير الفُلك تشويقًا له، كما جرت العادة في تأخير المذكور تشويقًا له وتفخيمًا لشأنه.

دلالة اللام في ﴿لِتَجْرِىَ﴾:

وجه تسخير البحار أنَّ الفُلك قادرة على الجري فيه

أدخل النَّظم الجليل لام التَّعليل على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لبيان علَّةِ التَّسخير[4]، فوجه التَّسخير أن يكون البحر حاملًا للفُلك مناسبًا لجريها فيه، فخلق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/48.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

اللّه تعالى تلك القوانين والسُّنن في البحر بحيث يتمكَّن الإنسان من اكتشاف تلك السُّنن، فيبحر فيه.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿لِتَجۡرِيَ﴾:

جري الفُلك في البحار متجدِّد مشاهَدٌ في كلِّ زمان

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الجري بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ للدَّلالة على تجدُّد ذلك الجري، وأنَّه دائم في كلِّ زمان، كما أنَّ في ذلك تصويرًا للمشهد.

نكتةُ ذِكر المُجرَى فيه ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾:

التَّصريح بالمجرى فيه وهو مظنَّة الهلاك أبلغ في بيان النِّعمة

صرَّح النَّظم الجليل بأنَّ جري الفلك كائن في البحر في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ مع كون أنَّ ذلك معلوم؛ إذ لا يخفى أنَّ الفلك تجري فيه، ولا تجري في غيره؛ وإنَّما صرَّح بالبحر لاستحضار عظمة هذا الإنعام، فمن الغريب أن يركبَ الإنسانُ البحر الذي هو مظنَّة الهلاك، فكان الإنعام بركوب البحر إنعامًا كبيرًا، فذَكر البحر استحضارًا وتذكيرًا بذلك.

دلالة اللام في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

الفُلك تجري في كلِّ بحر، ليس بحرًا بعينهِ

عرَّف النَّظم الجليل البحر بالألف واللّام الدّالَّة على الجنس في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾؛ فليس المراد به بحرًا بعينه؛ بل المراد جنس البحار، فإنَّ الفلك تجري في البحار كلِّها، فهو أمر عامٌّ في كلِّ البحار، ولا يختصُّ ببحر دون غيره.

سرُّ تقييد الجري بشبه الجملة ﴿بِأَمۡرِهِۦۚ﴾:

خلق الله تعالى الموجودات مع غاياتها، فجري الفُلك قد جرى بأمره ذلك

قيَّد النَّظم البليغ جريَ الفُلك بكونه حاصلًا بأمر اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾؛ إذ إنَّ الجري في البحر من عجائب الأمور التي تبهر العقل، فكان من تمام بيان عظمة الإنعام أن ينسب ذلك إلى أمرهِ ﷻ[1]، وأمره تعالى لها إنَّما وقع حال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

إيجادها، وهو قول الله تعالى للبحار والأرض وسائر الأشياء: "كن بحال كذا وعلى وتيرة كذا، وفي هذا يندرج جريان الفلك وغيره"[1].

غرض إضافة الأمر للضَّمير ﴿بِأَمۡرِهِۦۚ﴾:

فخامة الأمر بفخامة الآمر، إيماء إلى استحقاق التَّوحيد

أضاف النَّظم الجليل لفظ الأمر إلى الضَّمير العائد إلى الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على عظمة ذلك الأمر، وأنَّ ذلك الأمر له من العظمة بأن يضاف إلى الله تعالى لاختصاصه به، فهو مَن يأمر البحار وغيرها، فهو خالقها وموجدها، ففيه إيماء إلى أنَّ ما يشركون به لا أمر لهم، تذكيرًا لهم بالإله الحقِّ المستحقِّ العبادة والطّاعة.

دلالة الواو في ﴿وَسَخَّرَ﴾:

النِّعم العظيمة تذكر تباعًا لبيان عظمة الخالق

عطف النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ على الجملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بالواو[2]؛ لأنَّ الأنهار من جملة النِّعم العظيمة بعد نعمة البحار[3]، فسيقت الأنهار ضمن الآلاء التي ذكرت في التَّعريف بالجليل ﷻ وبيان نعمائه وجميل آلائه.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول به:

بيان أنَّ المخاطَب هو المخصوص بالإنعام أبلغ في الاحتجاج

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾، فلم يقل على الأصل: (وسخَّر الأنهار لكم)؛ لما في التَّقديم والتَّأخير هنا من أثر في بيان الامتنان، فالمستفيد من تسخير الأنهار هم النّاس، فقدَّم ذكر مَن وقعت له الفائدة من ذلك التَّسخير، وهذا أبلغ في سياق الامتنان بتلك النِّعم، كما أنَّ في تأخير الأنهار تشويقًا لها، فيبقى السّامع

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

منتظرًا أيَّ شيء وقع في التَّسخير بعد تلك المذكورات، فيأتي ذكر الأنهار لتقرير ذلك الامتنان.

علَّة الجمع ﴿ٱلْأَنْهَرَ﴾ والإفراد ﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الأنهار بصيغة الجمع، والبحار بصيغة المفرد، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَرَ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنعام بالأنهار متأتٍّ بكونها كثيرة متفرِّعة، تسير في بلادهم، أمّا البحر؛ فذكر الإنعام بجري الفُلك فيه، لا الإنعام بالبحار ذاتها، فأفرد لإرادة الجنس، فجري الفلك يكون في كلِّ بحر بما لا يختلف عن بحر آخر.

الإنعام بالأنهار كائن بالكثرة والتَّفرُّع، والبحر سيق لبيان الإنعام بجري الفلك فيه

نكتةُ جمع الأضداد:

جمع النَّظم الجليل بين المتقابلات في الآية - ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ و﴿ٱلْأَنْهَرَ﴾ -، فجمع بين السموات والأرض، وجمع بين البحر والأنهار؛ لما في ذلك من بيان تنوُّع نعمه، وأنَّها متحصِّلة في كلِّ تلك الموجودات، فهي تتضمَّن نِعَمًا جليلة لا تحصى، وفي ذلك تأكيد على استحقاقه التَّوحيد والعبادة، فنِعَمُهُ في كلِّ مكان تحيط بالخلائق.

نِعَمُ المولى كثيرة متنوِّعة حاصلة في كلِّ مكان

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أنزل) و(نزَّل):

قال الرّاغب: "والفَرْقُ بَيْنَ الإنْزالِ والتَّنْزِيلِ: أنَّ التَّنْزيل يختصُّ بالموضع الذي يُشيرُ إليه إنزالُهُ مفرَّقًا، ومرَّةً بعد أُخْرَى، والإنزالُ عامٌّ"[1]. وفي الآية آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ (أنزل)؛ لأنَّه أنسب مع نزول الماء؛ لأنَّه نزول عامٌّ لا يراد بيان أنَّ نزوله مفرَّق؛ إذ لا ميزة بتفريق إنزاله؛ بل المراد كونه نعمةً من نِعَم الله تعالى، وهي حاصلة بالإنزال العامِّ.

التَّنزيل دالٌّ على التَّفريق، والإنزالُ عامٌّ

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»